٥٣ أحمد البدوى والفرار من دولة المرابطين

أقبل على هذه المدينة المتواضعة ـ وقتئذ ـ من مدن دلتا مصر نشوان مغتبطاً.

صحيح أن طول السفر ومشقته، وفيح الصحراء وتراميها، قد أصابته بالضنى والألم.. بيد أن الغاية النبيلة التى كان يسعى إليها أنسته آلامه وجراحه وأفاضت على روحه بالبِشْر والسرور، فدخل هذه المدينة كأنه عابر سبيل طالت به مدة السفر والترحال من مدينة إلى أخرى، ومن قطر إلى آخر، فَآوَى إليها ليستريح ويتزود، فربما يواصل السفر. ولكنه بقى وأستقر، والتف حوله الاتباع والمريدون من كل صوب وحدب، ليكونوا فيما بعد طريقة صوفية لا تزال باقية حتى اليوم، برغم ما مضى عليها من السنين والقرون.

أما هو: فهو السيد أحمد البدوى، وأما المدينة: فهى طنطا، عاصمة الغربية بمصر.. ويبقى السؤال: ما الذى جعل ابن المغرب فى الشمال الإفريقى يجوب الصحارى والبلاد، وينتقل من الغرب إلى الشرق، مروراً بالمدن والأقطار المتعددة ليستقر فى هذه المدينة الوادعة، ويلتف حوله كل هؤلاء الأتباع والمريدون، وتبقى تعاليمه وكلماته منقوشة فى داخل الصدور، حتى وإن مات ودفن فى هذه المدينة التى سرعان ما نُسبت إليه. حتى لا يكاد يذكر اسمها حتى يقفز إلى الذهن ساكنها السيد أحمد البدوى وطريقته الأحمدية؟

للإجابة على السؤال وغيره نقول:

تتفق روايات وكتابات المؤرخين حول حقيقة، هى أن هذا الرجل الصالح من أصلٍ عربى خالص، إنحدر من أشرف وأكرم البيوت العربية، حيث ينتهى نسبه إلى

الإمام على بن أبى طالب «كرَّم الله وجهه، وقد انتقل أجداده إلى مدينة «فاس» المغربية فى عصر الدولة الأموية فراراً من اضطهاد الحجاج بن يوسف الثقفى للعلويين. وفى المغرب تزوج هذا الجد الشريف بابنة أخٍ للسلطان، فولدت له عليا، الذي تزوج بدوره من امرأة عالية النسب، فولدت له ستة من الأبناء، أصغرهم أحمد. . الذى لُقب فيما بعد بالبَدوى، وعُرف بصاحب الطريقة البدوية أو الأحمدية.

وإذا كان اسمه أحمد بن على حتى ينتهى نسبه إلى على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضوان الله عليهم. . فإن اسمه يتضمن تسعة أئمة من الأئمة الاثنى عشر المعروفين فى المذهب الشيعى، وأن نسبه ينتهى إلى الإمام الحسين وليس الإمام الحسن رضى الله عليهما. وهذا على خلاف ما هو معروف من أن صوفية المغرب الذين هم من أصل مغربى ينتهى نسبهم دائماً إلى الحسن كما يقر الدكتور عامر النجار فى كتابه عن «الطرق الصوفية فى مصر»، وكما يقرر الدكتور على صافى فى كتابه «الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى». بقوله: «وأما صوفية المشرق فى العراق ومصر والشام وفارس وبلاد خراسان فإنهم عودونا الانتساب إلى الإمام الحسين. والسبب فى انتساب المشارقة إلى الإمام الحسين، والمغاربة إلى الإمام الحسن راجع فيما أعتقد إلى أن المشارقة كانوا كالشيعة فى محاولة الوصول إلى الحكم والاستئثار بالسلطة. أما الذين انتسبوا إلى الإمام الحسن فكانوا يدعون إلى الخلافة الباطنية غير حافلين بشئ، فى خلافة أهل الظاهر، حيث زعموا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عقد للحسن الخلافة الباطنية بعد أن نزل لمعاوية بن أبى سفيان عن الخلافة الظاهرية».

معنى هذا أن الذين ينتسبون إلى الإمام الحسين يدعون إلى الخلافة الظاهرية، فى حين أن الذين ينتسبون لأخيه الإمام الحسن وهم المغاربة ـ يدعون إلى خلافة الباطنية.

ومعنى هذا أيضاً أن السيد أحمد البدوى إذا كان وُلِدَ ونشأ بالمغرب فإنه عاد إلى أصوله بالمشرق، لأنه حسينى النسب، وهو ما تؤكده لوحة حياته التى صيغت باتفاق جميع المؤرخين، حيث هاجرت أسرة السيد أحمد البدوى ـ والده «على»

وجميع أشقائه ـ إلى مكة المكرمة وقد استغرقت هذه الرحلة من فاس بالمغرب إلى مكة بالحجاز حوالى أربع سنوات، وقد مروا بمصر فى طريقهم وعاشوا فيها فترة تقدر بحوالى ثلاث سنوات.

وكما يسجل الدكتور عامر النجار فى كتابه عن الطرق الصوفية بمصر: «ويقال عن قصة انتقال أسرة السيد أحمد البدوى من فاس إلى مكة إن أباه عليًا جاءه الهاتف فى المنام ـ أنْ يا علىّ، أرْحَلْ من هذه البلاد إلى مكة المشرفة، فإن لنا شأناً ـ فرحل بأسرته..».

ولندع شقيق السيد أحمد البدوى ـ ويدعى الشريف حسن ـ يروى ذلك قائلا: «فما زلنا ننزل على عرب، ونرحل عن عرب فيتلقوننا بالترحيب والإكرام. حتى وصلنا إلى مكة المشرفة فى أربع سنوات».

ويواصل روايته إلى أن يقول: «فلما وصلنا إلى مكة وعلم الناس بقدومنا هرعوا إلينا، وسلموا علينا، واعتقدوا فينا الخير. وأتى إلينا سلطان مكة وأشرافها، فجاءوا إلينا، وتعرفوا بنا. وسأل السلطان: أين الشريف أحمد الملثم؟ اجمعوا بينى ـ أى السلطان ـ وبينه، فإن جدي الرسول صلي الله عليه وسلم وصفه لي وأرانى صفته فى المنام، وقال لى يخرج من المغرب، وهو ابن سبع سنين، ويدخل مكة وهو ابن إحدى عشر عاماً. وأشار لى ـ أى السلطان ـ أن أسير إليكم، وأجتمع بكم، وأسلم عليكم، وعلى الشريف أحمد الملثم ـ أى أحمد البدوى ـ وأتبرك به. وقال لى: إنه سيظهر له حال، وأى حال، ويربى المريدين، يجئ منهم رجال، وأى رجال. فقال له والدى: إن هذا الولد حديث السن، وأين يقدر على هذا الحال؟ فقال السلطان: أعِدْ، إن جدى رسول الله ﷺ أرانى صفته، ففى أنفه شامة سوداء من كل ناحية أصغر من العدسة، وهو أقنى الأنف، صبيح الوجه. فلما حضر أخى أحمد ـ أى البدوى ـ ورآه السلطان عرفه بالصفات فقام إليه واعتنقه وأجلسه إلى جانبه».

ولعل وصف الإمام الشعرانى فى كتابه الطبقات الكبرى يؤكد ما ذهَبَتْ إليه هذه الرواية على لسان شقيق السيد أحمد البدوى، حيث يصفه قائلا: «كان غليظ الساقين، طويل الذراعين، كبير الوجه، أكحل العينين، طويل القامة، قمحى اللون، وكان فى وجهه ثلاث نقط من أثر جدرى. فى خده الأيمن واحدة، وفى

الأيسر اثنتان.. أقنى الأنف، على أنفه شامتان فى كل ناحية شامة سوداء أصغر من العدسة، وكان بين عينيه جرح موسى...».

ومن هنا يتضح أن أسرة السيد أحمد البدوى قد سافرت إلى الحجاز، وأما السبب المباشر لذلك فهو لاضطراب الأحوال فى بلاد المغرب إثر قيام دولة المرابطين واضطهادهم لأتباع دولة الموحدين، ومنهم أسرة السيد أحمد البدوى، التى استقرت بالحجاز حتى توفى عائلها الشريف على بن إبراهيم، ودُفن هناك. وكانت وفاة هذا العائل نقطة تحول فى حياة الابن أحمد البدوى. فقد عكف على العبادة، وامتنع عن الزواج، واعتزل الناس، وعاش فى صمت لا يفصح عما يجول فى خاطره، وأصبح فى حالةِ وَجْدٍ وَوَلَهٍ. دائمين إلى أن سافر إلى العراق، حيث رأى رؤيا تأمره بالرحيل إليها.

ولعل هذا هو السبب فى رحيله إلى العراق، أو لعله كما يذهب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور حيث ينبه إلى هذه الرحلة فى كتابه عن السيد أحمد البدوى قائلا: «يبدو أن السيد أحمد البدوى أدرك أن مكة ـ مع عظيم مكانتها ـ كانت أضيق من أن تتسع لطموحه وآماله ـ ففكر فى الهجرة منها إلى بلد واسع الإمكانيات البشرية والمادية.» فكانت مصر.

ومهما يكن السبب، فالثابت تاريخياً أن السيد أحمد البدوى سافر إلى العراق، وزار «أم عبدة» مركز الطريقة الرفاعية، كما زار قبر السيد عبد القادر الجيلانى. وفى العراق تشبع بمبادئ كل من القطبين الرفاعى والجيلانى، ماضياً فى سلوكه من الصمت والصوم، والقيام، وقراءة القرآن الكريم. حتى قرر الرحيل إلى طنطا بمصر فى عهد الملك الكامل محمد الأيوبى.

ولم يكن تأثير السيد أحمد البدوى مقصوراً على المدينة التى اختارها مقاماً لحياته ومدفناً له بعد موته، وهى طنطا، وإنما امتد تأثيره فشمل القطر المصرى وغيره من الأقطار الإسلامية، وذلك عن طريق أتباعه ومريديه الذين انتشروا فى شتى البقاع، والذين عُرِفُوا بالسطوحية، حيث كان قطبهم السيد أحمد البدوى يجلس على سطح منزله أثناء لقائه بالمريدين والأتباع. واستمر على هذا النحو حتى توفى عام ٦٧٥ هـ، ودُفن فى المكان الذى كان يتعبد فيه بطنطا، وهو الذى أُنْشِئَ عليه المسجد الأحمدى فيما بعد.

* * *